

النص التشعبي أدب جديد يحتاج إلى قراءة جديدة

في الرواية التفاعلية من حق القارئ أن يختار ما سيحدث لاحقا



القراءة أصبحت رحلة متكاملة



الرواية التفاعلية تحرر القارئ (لوحة للفنان علي رضا درويش)

الكثير من قدراتنا الذهنية، وكل قراءة تستحضر ذكرياتنا عن قراءات سابقة وخبرات أخرى، ومن ثم فإننا نجعل من كل نص نقرأه نصا تشعبيا. ولكن علينا أن نفرق بين القراءة بوصفها فهما فهم العالم، وفهم أنفسنا والقراءة بوصفها إدراكا حسيًا بسيطًا.

ويتابع سعيد الوكيل "تتضمن كل قراءة نقرأها عنصرا من هذا الإدراك الحسي: تعرف الحروف والكلمات الموضوع في ترتيب محدد مسبقا. ولكن القراءة بوصفها فهما لم تكن قط عملية خطية، أما القراءة بوصفها إدراكا حسيًا فمن المحتم أن تظل عملية خطية. ومن النصوص السردية الحديثة التي استطاعت أن تستلهم الواقع الافتراضي وأن تكتبه خطيا رواية في كل أسبوع يوم الجمعة لإبراهيم عبدالمجيد. هذه الرواية استطاعت أن تخلق عالما جديدا به قدر هائل من الإثارة، والإمتاع الجمالي، لكن جانبها مهما من جوانب نجاحاتها يتمثل في إثارة أسئلة حقيقية حول ذاتنا وعلاقتنا بالآخر وبالعالم، ومن قبل ومن بعد بالبحث عما يمكن أن نطلق عليه 'الحقيقة'."

الخاصة وهو ينقر على الفأرة ويتحرك في جسد النص وفق اختياراته وإمكاناته، وبذلك يبدع نصه من خلال النص الذي يقرأ، هل نقول الآن بصريح اللفظ 'النص الذي ينتج'، لأن لفظة 'الإنتاج' تكنسي هنا وضعا أوضح من السابق. هذا الإبداع التفاعلي هو رهان الإبداع غداً.

ويتساءل الناقد عن العلاقة بين تكنيك الكتابة عند المدع الذي يكتب الرواية الرقمية وإبداعه السابق. هل تعبر الرواية الرقمية عن عالم جديد، أم أن الوسيط الإلكتروني الجديد هو الذي فرض نفسه؟ ويقول "علينا أن نميز بين التعبير عن عالم جديد والتعبير بأصوات جديدة. وهل أصبح العالم خاضعا لهيمنة الإنترنت حتى نكون بحاجة ملحّة إلى التعبير عنه أم أن وجود وسيط تواصل جديد هو الذي يوحى إلينا باستخدامه؟"

يسم النص بمعناه التقليدي باللامح الآتية: له بداية، ونهاية، وترتيب مسبق توضع فيه العناصر الواقعة بين البداية والنهاية، وهذا ما نسميه بالخطية. والقراءة عملية ذهنية بالغة الرقي والتعقيد، نستخدم فيها

إلى إمكان الحديث عن "الأدب التفاعلي" بوصفه "جنسا جديدا في الإبداع الأدبي، يتجسد من خلال الرواية التفاعلية أو المسرح التفاعلي وسواهما من الأنواع الأدبية الجديدة".

ويقول "يتحقق التفاعل بوضوح في الأعمال الدرامية التفاعلية كما في مشروع يُدعى الدراما التشعبية، فمقدورك اختيار مجموعة الأفراد التي تدخلها متداخلة، ويمكنك التنقل من حدث إلى آخر، مثلما تُغَيِّر القنوات وأنت تشاهد التلفزيون. أما الشيء الذي يبدو اليوم أن التفاعلية قادرة على تقديمه للأدب فهو، في المقام الأول، التمكين من حرية اللعب، حتى يكون بمقدورك أن تُغَيِّر إما وجهة نظرك وإما تسلسل الأحداث".

ويتابع "ومن الواضح أن في هذا قدرا من الحرية، ولكن هذه الحرية ستظل دائما مقترضة على قيمة فنظام كهذا يجرد الأدب من قيمته ومغزاه: إدراك أننا لا نستطيع أن نجعل عجلة القدر تدور في الاتجاه العكسي، وأن ما حدث لا يمكن إلغائه حدوثه. يكفي أن نتخيل أن أحدا قد جلس هاملت على العرش منذ البداية تماما. أو مكن أوديب من معرفة أبه الحقيقي. إن اللاتخطية ليست السبب الوحيد في إفساد الحكمة، فالأنا تحديد المسبق سبب آخر من أسباب ذلك، وحتى اليوم ليس لدى الأدب الإلكتروني ما يطرحه عوضا عن ذلك".

الفن المتكامل

يلاحظ الوكيل أن اكتشاف الجنور الكامنة في التراث العربي يمكن أن يعد تمهيدا لإبداع تفاعلي، كما يؤدي إلى تغيير بعض مفاهيمنا حول تشذير الشعر القديم وحول بعض الإبداعات التي شغلت بالمشكيل البصري، وعدّها بعض الباحثين إهدارا للشعرية. وفي رأيه إن هناك أزمة حقيقية في التواصل تستدعي استلهم مفهوم التفاعل في ظل ترقب إنتاج إبداعات تفاعلية تنهل من التراث وتفيد من الطبيعة الخاصة للإبداع التفاعلي، من حيث إمكان الإفادة من مجموعة من المكونات اللفظية وغير اللفظية، لتحقيق صور متعددة من التفاعل بين المدع والمتلقي، بشرط تحقيق الكفاءة على مستوى كليهما.

ومع الإبداع التفاعلي يمكن الحديث عن الفن المتكامل الذي يتجاوز فيه الصوت والصورة والحركة، "حيث المتلقي جزء أساس من عملية الإبداع، فهو يشارك فيها كمبدع تتحقق إبداعاته من خلال مساهمته في العملية نفسها. لم يسبق المتلقي مكتفيا بمتابعة النص بعينه، إنه يكتب النص بطريقته

سبب ونتيجة لكل واحد منهما. فليست "أ" هي التي تؤثر في "ب"، ولكن "ب" بدورها تؤثر رجوعا في "ارتداد سلبي". إن "أ" لا يمكنها أن تؤثر في "ب" دون أن تتأثر هي أيضا. وتبين مختلف المختصين أن فكرة "السببية الدورية" يمكن تطبيقها على الكائنات المختلفة: الحية وغير الحية. وبين وينر أن البيات الانتظام الذاتي يمكن أن توجد عند الإنسان والآلة سواء بسواء، مقترحا بناء على ذلك ربط الية نظريات البيات التحكم في الآلة والبيولوجيا والعلوم الإنسانية والنفسية والاجتماعية بموضوعة واحدة هي "التواصل".

النص التشعبي والقراءة

يشير سعيد الوكيل إلى أن ظهور أنواع مختلفة للنص التشعبي يدعو بالضرورة إلى ممارسة أشكال جديدة من القراءة. فمن أنواع النص التشعبي نمط بسيط يضم النص التوريقي والشجري والنجمي، وكل منها نوع يقرب من الكتاب المطبوع، فهو "يخضع لبنية شبه خطية ولمسارات مضبوطة ومحدودة، كما أن الروابط فيه محدودة ومقيدة بقبود دلالية أو منطوقية أو سببية أو ما شاكل ذلك من العلاقات التي تتحدد بواسطتها الصلات بين العقد".

أما النوع الآخر فإنه مركب، ومنه النص التوليقي والجذولي والشبكي، وكل منها يعد "أبعد ما يكون عن الكتاب المطبوع وعلى كافة المستويات، لذلك يمكن اعتباره النص الذي تتحقق فيه السمات الجوهرية للنص الإلكتروني الجدير بهذه الصفة. فعقد روابطه لا حد له، وهو مفتوح على كل مكوناته، ويسمح للقارئ بأن يتفاعل معه بصورة لا نجدها في أي نص آخر. وهذا النمط المركب هو المقصود ضمنا أو مباشرة بالنص المترابط في مختلف الدراسات أو الأبحاث التي ترصد أو تنظر له".

ويرى الوكيل أن الرواية التفاعلية تعتمد على الاختيار الحر للقارئ، وعلى مشاركته المؤثرة، حيث يكون من حقه أن يختار ما سيحدث لاحقا، وأن يخلق سلسلة من الامكانات المختلفة للأحداث ونهايات السرد. وهذا يعني أن القارئ الواحد يمكن أن يقرأ الرواية عدة مرات بحجبات مختلفة. وهنا يظهر مصطلح "المتفاعل" بدلا عن القارئ، حيث يوجه الشخصيات تبعاً لرؤيته.

ويلفت الناقد إلى أن ظهور النص التشعبي بانواعه المتعددة يدعو

كما شهدت الحضارة الإنسانية حالة تحول من الشفافية إلى الكتابة فإنها تشهد اليوم حالة تحول أخرى إلى الرقمية، وهي حالة لا يمكن أن تكون مبتورة، إذ تمتد عبر الزمن حتى وصلت إلى هيمنة أدوات اتصالية بعينها ترك أثرها المباشر في طرائق الإبداع وتجلياته. الواقع الرقمي اليوم أنجب نصوصا جديدة هي النصوص التشعبية التي لا تعترف بالنسقية الخطية والبداية والنهاية، والمتفوحة والتشعبة على الكثير من الاحتمالات في علاقتها بقارئها، فما هي أنواع النص التشعبي؟ وكيف يمكن قراءته؟

يتم الانتقال من جزئية إلى أخرى عن طريق تنشيط الروابط، وبدا تتحرك في النص على النحو الذي نزيد.

وقد ظهر هذا المفهوم عام 1965 على يد تيودور هولم نيلسون الذي أنجز مع فان دام في جامعة براون أول نظام مكتبي حاسوبي يستثمر ذلك المفهوم. ولا يعتمد النص التشعبي على اللغة المكتوبة فحسب بل يستثمر كذلك الوسائط التفاعلية الأخرى كالصورة والصوت والمشهد السينمائي.

وكون أن اعتماد النص التفاعلي على الترابط يجعل له ملامح بلاغية خاصة، وهذا يتضح من خلال مقارنته بالنص الأدبي الخطي، من حيث عناصر دائرة التواصل، وخصوصا ما نراه من اختلاف واضح في طبيعة المتلقي ودوره، وفي طبيعة قناة التواصل، وكذلك في مادة التواصل اللغوي ذاتها. درس الوكيل تفاصيل كثيرة تتعلق بعلاقة الكاتب بالتقنية وأثار تكنولوجيا الاتصال، وطبيعة العلاقة الجديدة بين شبكة الاتصالات والإيديولوجيا، والعلاقة بين منطق قراءة النص التشعبي وكتابه، مركزا على التفاعل بوصفه مناهج بلاغة

النص التشعبي، كما تطرق إلى أنواع النص التشعبي وطرائق القراءة، مرجعا على بعض النصوص الأدبية العربية على الإنترنت لتأمل ما أنجزته في بلاغة الأدب التفاعلي، مع التركيز على الرواية. ويرى الناقد أن تأسيس النص التشعبي لم يتم في إطار تطورات تكنولوجية فرضت نفسها وحسب، بل تم تأسيسه أيضا في إطار رؤية كلية للعالم تربط كل عناصره الطبيعية وغير الطبيعية "الآلية"، فالنص التشعبي نشأ في حضان الثورة السيبرنطيقية التي لاحت بداياتها منذ عام 1940. وهذه الفكرة جوهرية لأنها ستكشف لنا أن التحول من النص الكتابي "على مستوى الإبداع" ليس متعسفا بل يرتبط على نحو وثيق برؤية العالم. ولكن ما السبب في ذلك؟

السيبرنطيقا؟ إن السيبرنطيقا التي تعني التحكم باستخدام البعد المعلوماتي تولدت من فكرة جوهرية تكشف عن نوع جديد من العلاقات بين العناصر المتفاعلة. كانت العلاقة القديمة تقوم على أساس خطي يرى أن السبب "أ" يؤدي إلى النتيجة "ب"، لكن حصيلة التفكير والتجريب أدت إلى أن تستبدل بهذه العلاقة علاقة أخرى تنهض على "السببية الدورية" القائمة على أساس "الارتداد السلبي". لكن ظروف الحرب لم تسمح بتعميق هذه الفكرة.

ويستشهد الوكيل بالناقد وينر الذي أبرز أنه منذ القدم كان الاعتقاد السائد هو أن السبب يولد النتيجة، بينما في "السببية الدورية" نجد أن العنصرين "أ" و"ب" هما معا وفي آن واحد

كما يحل الوكيل رواية "في كل أسبوع يوم الجمعة" لإبراهيم عبدالمجيد، وعددا من الكتب المتعلقة بالموضوع ككتاب "الحدثة الرقمية" للناقد الثقافي البريطاني الإنكليزي، حيث "يتامل الراهن على مستوى التنظير، وعلى مستوى المنجز الإبداعي. ولعل التامل في هذا السياق يدعونا إلى عدم الإنزلاق إلى القول إن كتابة النصوص المترابطة أو التفاعلية هي مزية في حد ذاتها، بل تتحرك صوب القول بتفاوت النصوص بحسب أقدار مواهب مبدعيها".

الكتاب وفقا للوكيل "له غايات تتعلق بالرصد والتأمل والتدوّن، لكنه يسعى كذلك إلى تحليل الوسائط بين النص والرؤية، وصولا إلى مدارج التأويل، فالعيون تتطلع في هذا السياق الإبداعي الجديد إلى تلك الأعمال الأدبية التي تدمج الإمكانيات الرقمية بوصفها جزءا من البنية الدالة، وتوسع من مدى التعبير الأدبي. إننا نتطلع إلى الكشف للمبدعين عن الكثير مما يخفيه لهم النص المترابط بتجلياته المتنوعة".

ويوضح الباحث أن النص التشعبي يتحقق من خلال الكمبيوتر إبداعا وتلقيا، ويقف في مقابل النص المطبوع من حيث إن قراءته لا تخضع فحسب للقراءة الخطية التي تبدأ من نقطة محددة وتنتهي

بآخرى، بل يتكون من مجموعة من العقد التي يصل بعضها ببعض بواسطة روابط مرئية، ومن ثم

محمد الحماصبي
كاتب مصري

دأب المبدعون على التمرد على الأشكال التقليدية، ومن ثم حاولوا عبر النصوص الرقمية كسر النمطية في الإبداع. ومن مظاهر ذلك التمرد على الطبيعة الخطية للكتابة، حيث الحركة من بداية النص إلى نقطة محددة في نهايته، وكذلك تحرير المتلقي من سلطة النص والمؤلف.

هذا ما يؤكد ويشغل عليه الناقد سعيد الوكيل في كتابه "من النص الرقمي إلى نص الحدثة الرقمية" الصادر عن مؤسسة أزوقة للنشر، متناولا الحالة الثقافية للواقع الافتراضي على نحو ما يتجلى في الإبداع الأدبي على الإنترنت، ومحملا روايتي "ظلال الواحد" و"نشات" لمحمد سنانجلا، وباحثا في رقميتهما من عدمها، إلى غير ذلك من الأسباب الكثيرة.



سعيد الوكيل

الشيء الذي يبدو اليوم أن التفاعلية قادرة على تقديمه للأدب هو، في المقام الأول، تمكينه من حرية اللعب

كما يحل الوكيل رواية "في كل أسبوع يوم الجمعة" لإبراهيم عبدالمجيد، وعددا من الكتب المتعلقة بالموضوع ككتاب "الحدثة الرقمية" للناقد الثقافي البريطاني الإنكليزي، حيث "يتامل الراهن على مستوى التنظير، وعلى مستوى المنجز الإبداعي. ولعل التامل في هذا السياق يدعونا إلى عدم الإنزلاق إلى القول إن كتابة النصوص المترابطة أو التفاعلية هي مزية في حد ذاتها، بل تتحرك صوب القول بتفاوت النصوص بحسب أقدار مواهب مبدعيها".

كسر الخطية

الكتاب وفقا للوكيل "له غايات تتعلق بالرصد والتأمل والتدوّن، لكنه يسعى كذلك إلى تحليل الوسائط بين النص والرؤية، وصولا إلى مدارج التأويل، فالعيون تتطلع في هذا السياق الإبداعي الجديد إلى تلك الأعمال الأدبية التي تدمج الإمكانيات الرقمية بوصفها جزءا من البنية الدالة، وتوسع من مدى التعبير الأدبي. إننا نتطلع إلى الكشف للمبدعين عن الكثير مما يخفيه لهم النص المترابط بتجلياته المتنوعة".

ويوضح الباحث أن النص التشعبي يتحقق من خلال الكمبيوتر إبداعا وتلقيا، ويقف في مقابل النص المطبوع من حيث إن قراءته لا تخضع فحسب للقراءة الخطية التي تبدأ من نقطة محددة وتنتهي

بآخرى، بل يتكون من مجموعة من العقد التي يصل بعضها ببعض بواسطة روابط مرئية، ومن ثم



Alireza Darvish